(أولاً – الإنسان خاطئ)

ان السيد المسيح الطبيب السماوي الذي أتى يداوي أمراض الإنسان، رأى قبل كل شيء أن يداوي ذاك المرض الهائل والمكروب المنتشر القتال، مكروب الخطيئة الأصلية، الذي ورثناه عن أبوينا الأولين، فرسم لذلك سر المعمودية المقدس، وجعله شرطاً لكل من يريد أن يدخل الحياة الأبدية : ((من يؤمن ويعتمد يخلص)).

على أن المسيح رأى بحكمته أن الانسان الضعيف سيسقط في خطايا خاصة به، يكون هو، دون سواه، فاعلها ومرتكبها. ذلك لأن فيه ميلاً الى الشر قوياً، ولأن أعداء خلاصه عديدون. فمن شيطان يزأر حوله كالأسد، ويخدعه كما خدع حواء في الفردوس، الى عالم شرير، فيه كل ما يبهر العين، ويجذب القلب، ويحرك الشهوة : فمن ذهب وهاج، الى عظمة تبدو سامية، الى ملذات، الى أفراح متنوعة، وفي قعر كل منها خطية بل خطايا كثيرة.

لذلك أراد المسيح، وهو الطبيب الأمثل، أن يداوي هذه الأمراض، ويشفي هذه الجراح، حتى يعيد للإنسان صحة نفسه، أي القداسة والبرارة، فيطمئن فيه الضمير، وتزول عنه الوساوس والمخاوف، ويثق بالوصول يوماً الى السعادة الأبدية، التي لا يدخلها إلا كل من تبرر وتقدس.

(ثانياً : دواء الخطيئة)

فماذا صنع المسيح لشفاء هذه الأمراض؟

ماذا صنع المسيح حتى يغفر هذه الخطايا الفعلية، التي يصنعها الانسان بملء إرادته وحريته ومعرفته بعد بلوغه سن الرشد؟

إنه في سبيل ذلك رسم سر التوبة المقدس.

وما معنى هذا السر؟ معناه أن المسيح وضعه في الكنيسة حتى بواسطته ينال الإنسان مغفرة خطاياه التي اقترفها بعد المعمودية. فجميع خطايانا اذًا، ما عدا الخطية الأصلية تُغفر في سر التوبة دون سواه.

وكيف رتب المسيح ونظم سر التوبة؟ أي ما هي الطريقة التي أراد المسيح من جميع الخطاة أن يسلكوها حتى ينالوا غفران خطاياهم؟

أيها الأخوة :

ان الخطيئة هي إهانة الله، وإهانة كبرى. فلا يحلها إلا الله.

والله وحده له الحق في وضع الطريقة التي يمنح بها غفران الخطايا. فكيف حدد الرب يسوع هذه الطريقة؟

انه أوضحها لنا في إنجيله المقدس :

وذلك بأنه أعطى لرسله، ولخلفائهم من بعدهم سلطان الحل من الخطايا، وسلطان إمساكها، أي عدم حلها. ويذكر الإنجيل المقدس هذا المشهد مع كل ظروفه ووقتها.

يخبرنا الكتاب المقدس أن السيد المسيح في عشية اليوم الأول من قيامته ظهر لساداتنا الرسل، وكانوا جميعاً مجتمعين – ما عدا توما – في بيت واحد خائفين وجلين من اليهود. دخل اليهم يسوع والأبواب مغلقة، وأول ما قال لهم : السلام لكم. هذا أول كلام من المعلم الإلهي. هذا السلام الذي أتى ليضعه في كل قلب وفي كل ضمير. والذي في سبيله احتمل مر الآلام والعذاب والموت، ولهذا أرى الرسل جراحات يديه وجنبه ليظهر لهم ثانية كم أحب العالم، وكم احتمل في سبيل خلاصه، ليكونوا هم أيضاً على مثاله ويضعوا السلام في القلوب. ثم قال لهم : ((كما أرسلني الآب كذلك أنا أرسلكم)).

وكيف أرسله الآب؟

أرسله الآب كما قال عنه النبي اشعيا : ((ليبشر المساكين ويشفي منكسري القلوب)) (لوقا 4 : 18) وهو يرسل رسله لإتمام الغاية نفسها.

بعد هذه الكلمات نفخ المسيح في وجه الرسل وقال : ((إقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم)) (يوحنا 20 : 22- 23).

فهل من كلام أوضح من هذا لغفران الخطايا؟ اننا نرى أحياناً في الكتاب المقدس بعض آيات عسرة، صعبة الفهم، لا يتأتى لنا فهمها إلا بعد الدرس والمطالعة، والرجوع الى الآباء. ولكننا في هذا الموضوع، موضوع مغفرة الخطايا لا نرى أمامنا إلا ما هو واضح، كلي الوضوح، وليس فيه شيء من الغموض، أو الالتباس، فإن المسيح لم يستعمل لا توريات ولا استعارات بل كلاماً بسيطاً، يفهمه الجميع، ومعناه محدد لا يقبل لا تحريفاً ولا تأويلاً :

((من غفرتم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم)).

ربما كان الرسل ينتظرون من المسيح، بعد قيامته من الموت، وانتصاره العظيم على أعدائه، ان يهدد أعداءه بأشد العقوبات. ربما كانوا ينتظرون منه أن ينتقم من قيافا وحنان وبيلاطس وهيرودس بأقسى ما عنده من الكلام : الويل لك يا بيلاطس، الويل لك يا قيافا!

ولكن المسيح الذي أتى لينشر المحبة والسلام في قلوب الجميع، لا يعرف انتقاماً آخر، غير غفران الخطايا. هذا هو انتقامه : ((من غفرتم خطاياه تغفر له ....))!

ومنذ يوم قيامته حتى اليوم، كل مرة ترتفع يد الكاهن فوق رأس الكاهن المعترف، بينما يقول له المعترف : ((أنا أحلك من جميع خطاياك)) تحل السماء ما حله الكاهن على الأرض.

(ثالثاً – سر التوبة قضائي)

ان الرب يسوع بقوله لرسله : ((من غفرتم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم)) أقام الرسل وخلفاءهم من بعدهم، قضاء على الخطاة. ولا تغفر الخطايا إلا بحكم قضائي. وهذا واضح :

1- ان المسيح أرسل الرسل كما أرسله الآب، والآب أرسله قاضياً للأحياء والأموات. وهكذا هم الرسل وخلفاؤهم من بعدهم.

2- من جهة أخرى: ان المسيح لم يعط الرسل سلطان حل الخطايا فقط بل سلطان إمساكها. ولم يعطهم سلطان الحل والإمساك حسب أهوائهم وذوقهم، حتى يحلوا أصدقاءهم، ويمسكوا خطايا أعدائهم! معاذ الله! لأن حل الخطايا هو ضروري للخلاص. وما هو ضروري للخلاص لا يتوقف على ذوق الكاهن وأمياله واعتباراته وحريته. بل يتوقف على الحقيقة والواقع.

ولذا يجب على القاضي، حتى يحكم حكماً عادلاً، اذا كان يحل أو يمسك، ان يعرف الذنب ويعرفه كله، ويعرف ما رافقه وما يتبعه حتى يستطيع أن يحكم عليه أولاً، وعلى القصاص الواجب إتمامه، والمطابق لفظاعة الذنب أو خفته. فلو أن قاضياً حكم بالسجن المؤبد على إنسان سرق عشرة قروش، لقلنا أنه ظالم وأي ظالم! كذلك لو رأينا قاضياً حكم بالسجن المؤبد شهراً على انسان اقترف قتلاً عمداً، لقلنا : مات العدل والقاضي مرتشي.

فالقصاص اذاً يجب أن يكون مطابقاً للذنب. ولا يكون كذلك ما لم يعرف القاضي الذنب كله.

ولهذا في الاعتراف يجب على المعترف أن يقر بكل خطاياه، لا يخفي منها شيئاً ولا يزيد عليها شيئاً، بل يقولها كما هي تاركاً الحكم للقاضي نائب المسيح.

وهل يجوز للقاضي نائب المسيح، أن يمسك خطايا المعترفين بحسب هواه وأمياله؟ - معاذ الله! بل لا يجوز له إمساكها إلا اذا تأكد من عدم توفر التوبة الحقيقية.

ففي هذه الحال، وفيها وحدها يجب عليه أن يمسك الحل! وحتى يعرف ذلك يجب على المعترف أن يقر بكل خطاياه، وأن تظهر ندامته واستعداده للإصلاح!

ولهذا يجب على المعترف أن يقر بكل خطاياه، حتى يتأتى للقاضي المعرفة الواجبة والكافية للحكم بالحل أو بالإمساك.

هكذا منذ البدء فهمت الكنيسة سلطان الحل والربط، وهكذا استعملته منذ العهد الرسولي المقدس.

قال القديس يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية :

((قد نصب عرش للكاهن في السماء. وأصبح له سلطان أن يدبر السماوات .... من يقول هذا؟ ... ملك السماء نفسه : مهما ربطتموه على الأرض. أي شرف يمكنه أن يقابل ويساوي هذا الشرف؟ ان

السماء تأخذ من الأرض سلطاناً خاصاً على الحكم، لأن القاضي يجلس على الأرض. الرب يتبع العبد. ومهما حكم هذا على المرؤوسين فذلك يثبته في الأعالي)). (ميمره عن كلام إشعيا).

فقول المسيح اذاً : ((حلوا واربطوا)) و ((اغفروا وامسكوا)) معناه : اغفروا خطايا من كان جديراً بالمغفرة نظراً الى استعداداته وتأهبه.

وامسكوا خطايا من كان غير أهل للمغفرة نظراً الى عدم استعداداته وتأهبه بحيث يكون سبب المغفرة والإمساك أهلية للمعترف أو عدمها، لا إرادة القاضي وأهواؤه. وإلا لكان ذلك ظلماً وعدواناً. وحاشا الله أن يجعل سر الاعتراف للظلم والعدوان.

ولا يستطيع الكاهن أن يحكم اذا كان عليه أن يغفر الخطايا أم يمسكها ما لم يجرِ بحثاً قضائياً في المادة، أي يعرف الخطايا كلها، واستعدادات التائب ليحكم حكماً عادلاً بعيداً عن الظلم والعدوان.

من العادات المتأخرة أن يمنح رئيس الدولة عفواً عاماً عن المجرمين لظروف خارقة العادة : كولادة ولي عهد للملك مثلاً أو احراز انتصار عظيم على الأعداء ... وما شاكل.

وأول ما يناله الإنسان بعد الاعتراف، هو هذه الشجاعة الأدبية التي تتمنطق بها النفس مما تتجنب الخطايا من جديد. انه يخرج من كرسي الاعتراف قوي القلب والإرادة عازماً أن يصارع أعداء الخلاص غير مشفق على شيء، حتى يفضل الموت على الخطية.

يدخل خائفاً وجلاً فيخرج بطلاً من أبطال الحياة الروحية.

المنفعة التي ينالها الخاطئ بالاعتراف هي : راحة الضمير وطمأنينته! لا يوجد شيء يسلب راحة الضمير مثل الخطية!

ولا يقلق الضمير والقلب لشيء أكثر من الخطية!

ومتى فقد الإنسان الراحة والطمأنينة فقد السعادة وجميع مال الدنيا لا يفيده شيئاً!

فالإنسان بالاعتراف الصالح يعود اليه السكون والهدوء والراحة والطمأنينة أي تعود اليه السعادة في هذه الحياة أيضا!

ومع الشجاعة الراحة والطمأنينة، فالخطية تسلب راحة القلب والضمير، وهي كجبل على ظهر الإنسان.

خبر : يوجد في إحدى كنائس النمسا صليب يختلف عن جميع ما في الدنيا من صلبان : ان المسيح المصلوب عليه، لا تمتد يداه على خشبة الصليب بل هما مجموعتان على صدره، الواحدة فوق الأخرى. ويروى لذلك قصة طريفة موجزها :

ان جندياً من أيوباد دخل يوماً تلك الكنيسة، فرأى ذاك المصلوب، وشاهد إكليلاً من ذهب موضوعاً فوق إكليل الشوك على راس السيد المسيح فدفعه حب المال أن يسلب إكليل الذهب. وما أن مد يده

حتى انفلتت يدا المسيح من مواضعها وضمت ذاك الجندي بشدة على صدر المسيح. وبقي كذلك حتى اليوم التالي. فأثر في قلبه ضم المسيح له، وعرف فظاعة خطيئته وتاب عنها، وصار كاثوليكياً.

هذه القصة أو الأسطورة تصير حقيقة واقعية كل يوم في سر التوبة. ان الله يضم بين يديه الخاطئ ولا يتركه إلا بعد أن يغسل خطاياه بدموعه!

عرفت شخصاً في بلادنا كان مضى عليه زمن طويل دون اعتراف وكان خائفاً مضطرباً وجلاً، وكاد ييأس من الحياة. حضر مرة رياضة روحية تقدم خلالها للاعتراف وما أن تم اعترافه حتى تغيرت حاله، وامتلأ قلبه فرحاً وغبطة وسعادة وقال : كم كنت في ضلال يوم كنت أبتعد عن الاعتراف خوفاً وجبناً. لا شيء يعيد الراحة والسلام للإنسان مثل الاعتراف.

الاعتراف خير عظيم للجماعة : مرض عصرنا الفتاك الذي ينخر العظام، ويحول دون التقدم بالفضيلة والتقوى قائم بأن ضمير الانسان العصري أظلم وتخدر بحيث لم يعد يشعر بخطاياه وذنوبه. يقترف الخطية تلو الخطية ويظن أنه يعمل عملاً صالحاً مفيداً.

وفوق هذا لم يبق فيه رغبة للنهوض من هذه الحالة ومن هذا الشقاء. هو باق في شقائه كالكسيح لا يتحرك ولا يتزحزح!

مات الضمير الحي وماتت معه مبادئ القداسة والفضيلة والتقوى!

ومات الشرف، وماتت معه الشهامة الأخلاقية!

ولن يعود الإنسان الى مبادئ الحق والعدل ومبادئ الفضيلة والقداسة إلا ساعة يحاسب ضميره على نور المبادئ الإنجيلية فيعرف ما هي الخطية وما هي إهانة الله، وما هو واجب التكفير عنها وواجب الحياة الفاضلة. وكل هذا يتم له بالاعتراف لا غير.

فالاعتراف هو في الوقت الحاضر الواسطة الكبرى الفعالة لإصلاح الجماعة البشرية!

يا ليت الجميع يعترفون!

لو كان القاضي يعترف لما حكم أحكاماً ظالمة!

لو كان الوزير يعترف لما استخدم سلطانه لتنفيذ الغايات.

لو كان الجندي يعترف لما أقدم على السلب والنهب.

لو كان التاجر يعترف لما استعمل الغش والخداع في سلب أموال الناس.

لو كان المحامي يعترف لما جعل البريء مظلوماً والظالم بريئاً.

لو كان الطبيب يعترف لما استخدم الطب ضد شرائع الله والضمير الصالح.

لو كان الوالد يعترف لما كان في بيته مسبات وخصومات.

لو كانت المرأة تعترف لما كان هناك كبرياء وحسد وغيرة.

لو كان الشاب يعترف لما كانت هنا مفاسد ومآسي.

لو كان الولد يعترف لما كان في البيت لا لعنات ولا مسبات...

يا ليت الجميع يعترفون! لكانت البشرية على أحسن حال وليس فيها : لا لصوص ولا شتامون ولا متكبرون لا زناة ولا أنانيون، بل كانت صورة كاملة للسعادة الأبدية بأخلاقها وآدابها واستقامتها!.

والآن لنستمع الى الاعتراضات!

الاعتراضات

س1 – في كلامك عن سلطان مغفرة الخطايا تستند على كلام المسيح القائل ((من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم)) بهذا الكلام تعتقد أن المسيح أعطى التلاميذ السلطان الكامل لمغفرة الخطايا. ولكن هناك فئة من الناس تعلم بأن المسيح بهذا الكلام لم يقم التلاميذ قضاة بل أقامهم ليوضحوا فقط أن الخطايا غفرت أم لا.

ج _ قوام الاعتراض : ان المسيح لم يقم الرسل وخلفاءهم قضاة ليحكموا، بل شهوداً ليشهدوا فقط ان الخطايا غفرت ... ولكن : كل ما في الإنجيل يشهد بخلاف ذلك :

لما أعطى المسيح للرسل سلطان مغفرة الخطايا وإمساكها ابتدأ بهذا الكلام :

1 ((كما أرسلني الآب أنا أيضاً أرسلكم)) أي ان رسالة الرسل هي نفس رسالة المسيح : والمسيح لم يشهد فقط بأن الخطايا غفرت بل كان يغفرها فعلاً : هكذا غفر خطايا المخلع حتى تعجب من ذلك اليهود وتذمروا عليه قائلين : من يمكنه أن يغفر الخطايا إلا الله؟ وكذلك غفر خطايا الزانية وخطايا المجدلية.

وعليه يكون الرسل الذين لهم نفس إرسالية المسيح نيلوا من المسيح سلطان غفران الخطايا كما كان للمسيح.

2 ان المسيح نفخ في وجوه الرسل قائلاً : اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم غفرت...

وبهذا النفخ أي بإعطائهم الروح القدس بنوع حسي يبين المسيح صراحة انه دخول رسله سلطاناً خاصاً لا يمكنهم أن يمارسوه إلا بمعونة الروح القدس.

والحال : ان التبشير بمغفرة الخطايا والشهادة بأنها غفرت لا يستلزم اتفاقاً خاصاً وسلطة خاصة. لأن الأنبياء في العهد القديم كانوا هكذا يصنعون! هكذا قال النبي يوناتان لداود : ان الرب قد نقل خطيتك عنك (2 ملوك 12 : 13) وكل مؤمن يستطيع أن يبشر بمغفرة الخطايا. فالسلطان الذي أعطاه المسيح لرسله، والذي أعطاهم لأجله الروح القدس، ليس هو اذًا سلطان تبشير بمغفرة الخطايا، بل هو سلطان مغفرة الخطايا رأساً، كما تشهد عليه الكلمات ذاتها : من غفرتم خطاياهم ...

وقول المسيح للرسل : ((ومن أمسكتم خطاياهم مسكت عليهم)) دليل واضح أكبر بأن سلطان الإمساك يتم بفعل وضعي من قبل الرسل، لا بالشهادة والتبشير والإشارة : فمن غفروا خطاياه غفرت له ومن أمسكوا خطاياه تمسك له.

س2 – الاعتراف اختراع الكنيسة الكاثوليكية لكي تقف على أسرار الشعب وتكشف عن ضمائرهم وتبقى متسلطة عليهم. والذي اوجده البابا اينوشنسيوس الثالث سنة 1215 في المجمع اللاتراني الرابع.

ج – يقول : الاعتراف أوجده البابا اينوشنسيوس الثالث سنة 1215. وذلك ليقف على أسرار الشعب!

1 اذا صح ووضح أن الكنيسة المقدسة عرفت الاعتراف منذ الأجيال الأولى سقط الإدعاء الأول من أساسه.

والحال ان الكنيسة استعملت فعلاً الاعتراف منذ نشأتها.

في الجيل الثاني والثالث جرى جدال عنيف بين الكاثوليك من جهة، وبين الهراطقة المونانيين والتوفاسبانيين من جهة أخرى. فالهراطقة كانوا يقولون : نعم للكنيسة السلطان بحل الخطايا، كما أعطاها المسيح. ولكن لا تستطيع أن تحل من كل الخطايا. أي انهم كانوا يقيدون هذا السلطان فيستثنون منه جحود الإيمان والزنى...

أما الكاثوليك فكانوا يصرحون ويعلمون بأن المسيح أعطى الرسل وخلفاءهم سلطاناً غير محدود لغفران الخطايا. ولم يستثن خطية واحدة. هذا ما جرى في الجيل الثاني والثالث أي قبل عشرة أجيال من البابا اينوشنسيوس.

وعلى هذا شهد القديس أمبروسيوس بقوله :

((ليس أحد يهين الله أكثر من الذين يريدون أن يقصروا وصاياه وان ينبذوا المهمة التي وكلها الى خدامه. فبعد أن قال الرب يسوع في إنجيله : ((اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه تمسك له)) من اذًا يكرمه أكثر : الذي يوافق أوامره أم الذي يقاومها))؟

وقال القديس يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية :

((كان يجوز للكهنة أن يطهروا برص الجسد، أو بالحري لم يكونوا ليطهروا، بل ليحكموا على المطهرين... أما هؤلاء الكهنة فقد قبلوا سلطاناً لا ليطهروا برص الجسد بل أقذار النفس. لا ليحكموا على النفس المطهرة بل لكي يطهروها حقيقة)) (كهنوت 3 : 5).

وأغوسطينوس : ((ان المفاتيح توجد في الكنيسة حيث تمحى الخطايا كل يوم)) (عظة 149 عدد 7).

وذكر الاعتراف عدد كبير من آباء الكنيسة ومجامعها في الأجيال الأربعة الأولى نذكر منهم : القديس ايرناوس، والمعلم أوريجانوس، والقديس باسيليوس اليوناني، والقديس لاون، والقديس باولينوس، والقديس غريغوريوس الكبير .... ما عدا المجامع العامة والخاصة.

فالاعتراف اذًا موجود منذ بدء الكنيسة، ولم يخترعه البابا اينوشنسيوس الثالث.

ماذا صنع هذا البابا؟ - انه أمر بالاعتراف السنوي لا غير. أي الزم جميع المؤمنين أن يعترفوا أقله مرة في السنة! هذا ما صنعه البابا لا أكثر ولا أقل.

وهل كان باستطاعه البابا أن يوجد الاعتراف، اذا كان غير موجود؟ - لكانت الكنيسة كلها قامت عليه، ولم يضعه أحد لأن الاعتراف ليس شيئاً نظرياً، بل عملياً.

لو كان البابا أوجد الاعتراف لكان على الأقل عفى نفسه والكهنة منه، أو سمح لهم أن يحلوا ذواتهم! ولكن لا البابا ولا الكرادلة ولا الأساقفة ولا الكهنة ولا الرهبان ولا الراهبات معفون من الاعتراف. بل كلهم سواء مثل العلمانيين عليهم أن يقروا بخطاياهم لكاهن آخر. فلا يوجد إنسان واحد معفى!

2 ولماذا أوجد البابا الاعتراف؟ - يقول المعترض ليعرف الكهنة أسرار الشعب. وما المنفعة من هذه المعرفة ما دام للاعتراف سر عظيم يجب على الكاهن حفظه ولو الجئ الى الموت؟

ان الكاهن خارج كرسي الاعتراف عليه أن يتصرف مع المعترف كأنه لم يعلم منه شيئاً، فلا يستطيع أن يغير تصرفه معه، ولا أن يستفيد من كل ما سمع بالاعتراف ولو استفادة طفيفة جداً! فيجب عليه أن يبقى كما كان قبل الاعتراف. أي كأن الاعتراف لم يحدث! فما هي اذًا الإفادة التي يأخذها من الاعتراف؟ لن يأخذ إلا التعب لا غير!

ليس من السهل أن يبقى الكاهن في كرسي الاعتراف أربع ساعات أو ست أو عشر أو أكثر! يسمع لهذا وذاك... وكم هناك من تعب، وكم هناك من ضجر!

اذا مكث المعترف ربع ساعة في الكنيسة يتضايق، ويحسب الربع ساعة ساعات طويلة. وأحياناً يخرج بدون اعتراف. فماذا نقول عن الكاهن الجالس في كرسي ضيق، خشبي، ساعات عديدة؟ وهل يستفيد شيئاً مادياً؟ - لا فالاعتراف مجاني ولا يجوز ان يأخذ عليه قرشاً واحد.

واذا كان هناك مرضى، ومرضى مرضهم معد، ومرضى مدنفون، وطُلب ليلاً، فعليه واجب ثقيل، وثقيل جداً، أن ينهض ليلاً ويذهب للمريض، ولمريض معد، معرضاً بحياته لخطر الموت. فلو كان الكهنة أو الأساقفة أو البابوات هم الذين اخترعوا الاعتراف أما كانوا أعفوا ذواتهم من هذه الواجبات الثقيلة، والقتالة أحياناً؟

لا. الاعتراف وضعه الرب يسوع دون سواه.

س 3 – أنا لا أعترف لإنسان مثلي بخطاياي. هذا قلة عقل! بل ((مني لربي)) أعترف للمسيح مباشرة. بدون واسطة. لأن المسيح لما منح الرسل سلطان مغفرة الخطايا لم يحرم نفسه منه. ولكن ترك الحرية التامة أن نذهب أما الى التلاميذ وأما اليه. فأنا أذهب رأساً اليه، وأعترف بخطاياي وأنا المغفرة.

ج – بكلام مختصر : أنا لا أعترف لإنسان مثلي، بل أعترف لله رأساً.

1 في الكتاب المقدس الجواب لمن لا يريد أن يعترف لإنسان.

كان في دمشق قائد كبير اسمع نعمان السرياني. هذا القائد مرض يوماً بالبرص. وقد أنفق معظم أمواله في سبيل الشفاء فلم يشف. وكان عنده خادمة عبرانية. فأخبرته هذه أنه يوجد في بلادها نبي اسمه أليشاع يصنع العجائب، وربما استطاع أن يشفيه. فقام آتياً الى النبي ومعه الهدايا الفاخرة. مع خدم وحشم كثير! أما النبي فلم يستقبله، بل اكتفى بأن أرسل يقول له : اذهب الى الأردن واستحم بمائة سبع مرات فتشفى (4 ملوك 5 : 10).

فغضب نعمان السرياني وقال : كنت أحسب أنه يخرج ويقف ويدعو باسم الرب الهه ويرد يده فوق الموضع ويبرئ الأبرص؟ ألا يوجد في دمشق مياه أفضل من جميع مياه إسرائيل؟ وانصرف راجعاً وهو مغضب. – فتقدم اليه خدمه وقالوا له : يا سيد، لو أن النبي أمرك بصنع شيء صعب شاق، لكنت أطعته، ألأنه أمرك بشيء صغير سهل ترفض الطاعة؟ - فسمع كلامهم وذهب فاغتسل بالأردن سبع مرات وخرج من الماء طاهراً!

أيها السادة، كم في هذا الحادث الجواب الشافي، والحقيقة الناصعة أن الأسماء تتغير مع الأشخاص، ولكن الحقيقة تبقى. فبدل أليشاع يوجد الخوري، وبدل مياه الأردن عندنا سر التوبة. وبدل نعمان السرياني الأبرص نحن جميعنا الخطأة!

فاذهبوا الى نهر النعمة : الاعتراف. واستحموا لتطهروا.

2 أنا أعترف لله رأساً، لا حاجة لي من وسيط بيني وبين الله. والله يقدر أن يغفر الخطأ. وأعطانا الحرية أن نذهب اليه أو الى تلاميذه. هذا ما يدعيه الخصم، وفيه الكثير من الخطأ.

(أ) ما قولكم بإنسان قتل قتيلاً. ولما وقف أمام المحكمة للمحاكمة قال للقضاة : أنا لا أقبل أن يحاكمني إلا الملك. اليه أرفع دعواي رأساً؟ أيا ترى تحاكمه المحكمة ام لا؟ انها تحاكمه لأن قضاتها عينهم الملك، وأنهم يحكمون باسم الملك.

وهذا ما يجري بالاعتراف. ان الكاهن يحل لا باسمه الشخصي بل باسم الرب يسوع.

(ب) وهل يا ترى من حق المذنب أن يعين هيأة المحكمة أم عليه أن يحضر أمام المحكمة التي عينتها السلطة العليا في الدولة؟

ومن الذي عين الاعتراف لمحو الخطايا؟ أليس هو المسيح؟- واذا كان هو الذي عينه كما ثبت مما قدمنا، فما هي قيمة الاعتراضات التي يقدمها الانسان اذًا؟ لا شيء.

(ج) نعم المسيح يحل الخطايا. ولكن يحلها في السماء بعد أن يحلها الكاهن على الأرض : من غفرتم خطاياه غفرت له ... مهما تحلوه على الأرض يكون محلولاً في السماء. ولكن المسيح لا يحل ولا خطية في السماء قبل أن يحلها الكاهن بالاعتراف على الأرض.

حرضت يوماً سيدة زوجها بأن يعترف – فقال : أنا لا أعترف أبداً عند كاهن. أجابت : ولا أنا أيضاً أعترف عند الكاهن. قال الزوج : انت! أنت تذهبين كل شهر وتعترفين. أجابته الزوجة : ألا تتكلم أنت كل يوم بالتلفون لقضاء أشغالك؟ أيا ترى هل تخاطب التلفون أم شخصاً آخر يسمعك في آخر خط التلفون؟ وكما أنت تستعمل التلفون لتتكلم مع صديقك كذلك أنا أستعمل الكاهن لأتكم مع الله وأعترف له. فهو تلفون بيني وبين الله. وهكذا إرادة الله!

س4 – سلمنا بأن الخطايا لا تغفر إلا بالاعتراف. ولكن لا نسلم بأن الخطايا يجب أن نقر بها كلها بعددها وظروفها. هذا يحرج موقف التائب ويجعله يتباعد عن الاعتراف. يكفي أن نقر بصورة عامة، مثلاً : خطئت، أو سرقت، أو قتلت... بدون توضيح عن كمية السرقة، ولا عن عدد القداسات التي لم أحضرها الأحد والعيد....

ج – يقول : لا داعي لذكر الخطية بعددها وظروفها. بل يكفي الاعتراف بها بوجه عام كقول التائب : خطئت .. سرقت .. قتلت – وأنا أقول لكم : أيا ترى أكلّ الخطايا بفظاعة واحدة؟ أمن يسرق قرشاً كمن يسرق ألف دينار؟ وما القول عن قاض حكم على من سرق قرشاً حكمه على من سرق ألف دينار؟ - ألا تقولون أنه ظالم لا يعرف العدل؟

وكيف يستطيع القاضي ان يعاقب المذنب عقاباً مطابقاً لذنبه اذا كان لا يعرف الذنب كما هو؟ فإذا كان من سرق قرشاً يقول له سرقت، وكذلك يقول له من سرق ألف دينار : سرقت! ألا يحكم

القاضي على الاثنين بقصاص واحد؟ - أهذا عدل؟ لا. اذًا حتى يكون الحكم عادلاً وحتى يستطيع القاضي أن يبرر أو أن يشحب من الواجب عليه الإطلاع الكامل على الذنب وعلى مخففاته وعلى مكبراته!

وإلا كان قاضياً أعمى أو يتعامى!

اذًا الإقرار بعدد الخطايا وبظروفها التي تزيدها أو تنقصها أو تغيرها واجب

س5 – تقول بأنه ينبغي أن نعترف عند الكاهن، وهو انسان مثلنا معرض كل ساعة للخطأ. فمن يطمئنني بأنه لا يكشف خطاياي للغير؟ فإذا كان هناك مصلحة عامة كإنقاذ الجمهورية والدولة، أو فقد عمله، فإنه بلا شك يفشي جميع أسرار الاعتراف.

ج – قوام الاعتراف : ان الكاهن انسان يستطيع أن يفشي سر الاعتراف للمصلحة العامة، أو اذا فقد عقله.

اننا نطمئن هذا المعترض قائلين : ان المسيح سهر ويسهر دائماً على الاعتراف ليبقى سره مصوناً، لا بل هذا هو السر الوحيد الموجود في العالم.

نعم الكاهن انسان، فيمرض، لا بل اذا كبر يخرف، ويصير كالولد الصغير، وكالعجائز يحب الثرثرة وكثرة الكلام... ولكن رغم كل هذا لم يخبرنا التاريخ أبداً أنه أفشى مرة واحدة سر الاعتراف.

لقد عرفت كاهناً مرسلاً كان قوياً جباراً، وبينما كان يقضي رياضة روحية في بلدة بكفيا اللبنانية فقد عقله، وجن. فأتوا به الى قصر السيد البطريرك الذي لم يصدق الخبر. فأحاطه الأساقفة وكهنة السيد البطريرك من كل جهة، وأخذوا يلقون عليه أسئلة مختلفة، كان يجيب عليها جوابات رجل مجنون.

فخطر لأحد الأساقفة أن يسأله عن الخطايا التي اعترف بها عنده المطران الفلاني. لأن ذاك الكاهن المجنون كان صنع رياضة الأساقفة تلك السنة قبل جنونه. وما أن سمع الكاهن المجنون هذا السؤال حتى جن جنونه ونظر الى المطران السائل بعيون كالجمر، وصاح بصوت عظيم مخيف كالرعد : تسألني عن خطايا المطران؟ أما تعرف ان هذا سر اعتراف؟. ولو لم يقف كهنة الكرسي البطريركي بوجهه لكان قتل ذاك المطران!

نعم وجد في الكنيسة كهنة كفروا بالإيمان، وهرطقوا، وتركوا الثوب الكهنوتي... ولكن ولا واحد منهم قال كلمة صغيرة جداً عن أخف خطية اعترف بها انسان عندهم. اذًا فليطمئن المعترف تمام الاطمئنان على سرية خطاياه. وماذا نقول عن القصاصات الفظيعة التي تنزلها الكنيسة بالكاهن اذا تجاسر وأفشى سر الاعتراف، ولو من بعيد، تلميحاً؟

انها تنزعه من الكهنوت، وينزل فيه الحرم الكبير، وتلزمه بأشد القصاصات، والإماتات ما بقي من حياته! وأي انسان يقبل أن يحتمل هذه القصاصات لكي يقول كلمة صغيرة يفشي بها سر الاعتراف!

واحتم قائلاً : لو اعترف واحد عند كاهن وقال له : لقد وضعت لك سماً في نبيذ القداس. فلا يجوز للكاهن أن يغير ذاك النبيذ، بل أن يقدس عليه ولو كان من المؤكد أنه سيموت من السم! كل هذا ليطمئن بال المعترف.

س 6 – سمعت من قال : اخاف أن أقر بخطاياي للكاهن لئلا يغتاظ من قباحتها ويعنفني بشدة!

ج – ان هذا القائل لهو على خطأ، فالكاهن في كرسي الاعتراف هو قاض من جهة وهو طبيب من الجهة الثانية. وكطبيب، بقدر ما يكون المرض قوياً وكبيراً بقدر ما يشعر في قلبه من الشفقة والرحمة له، ويعمل جهده ليخلصه. وأكبر تعزية للطبيب أن يخلص من الموت المريض الثقيل. كذا الكاهن أنه يزداد رحمة وحناناً على كبار الخطأة، لا قساوة وغضباً. نعم عليه أن يفهم التائب فظاعة خطاياه حتى لا يعود اليها، انه يهاجم الخطية ولكنه يرأف بالخاطئ ويرحمه.

س 7 – يعتقد البعض أنهم يفقدون اعتبارهم اذا أقروا بخطاياهم للكاهن. لا سيما اذا كانوا في نظر المعترف فضلاء. فمن كانت هذه حاله واقترف خطيئة مخجلة فإنه يصعب جداً أن يقر بها لمرشد اعترافه. ان الخجل يستولي عليه ويمنعه عن الإقرار. ألا يجوز في هذه الظروف أن لا يقر بها، بل يخفيها ولكن يتوب عنها في قلبه؟

ج – جاء في أخبار الأقدمين عن شيطان الخجل ما يلي :

أخبر احد المعرفين بأنه كل مرة كان يدخل كرسي الاعتراف كان يشاهد الشيطان يطوف حول الكرسي متنقلاً من واحد الى آخر من جمهور التائبين. فسأله المعرف ماذا تصنع هنا؟ أجاب : أرد الى هؤلاء الأشخاص ما سرقته منهم. وماذا سرقت منهم؟ سرقت الحياء والخجل! لما أرادوا ارتكاب الخطية هونتها عليهم ونزعت من وجوههم الخجل حتى يقترفوها بسهولة. أما الآن، وقد أتوا ليعترفوا، فإني أرد لهم الخجل حتى يستحوا ولا يعترفوا بها.

قد تنطبق، لسوء الحظ، هذه الأسطورة على البعض من التائبين! لا يخجلون من ارتكاب الخطية، ولكن يخجلون من الإقرار بها للخلاص منها!

لهؤلاء جميعاً نقول : ان الخوري في كرسي الاعتراف لا نجد في قلبه إلا الرحمة والشفقة على الخاطئ مهما كان كبيراً. وبقدر ما يرى في التائب من ندامة وتوبة بقدر ما يزداد اعتباراً له واحتراماً.

كان للقديس فرنسيس سالس صديق يحبه ويعتبره. فأتى هذا يوماً اليه واعترف عنده، وكانت خطاياه كثيرة وفظيعة جداً. وبعد الاعتراف سأل المعترف القديس فرنسيس معرفه : ما هو اعتقادك فيّ الآن بعد أن عرفتني كما أنا، بواسطة الاعتراف؟ أجابه القديس : اعتقادي فيك الآن أنك ملاك من ملائكة الله. وضمه بين يديه وعانقه!

وهذا ما يقوله كل كاهن لأي انسان يعترف عنده، صديقاً كان أم عدواً. ان الكاهن يعلم حق العلم ضعف الطبيعة البشرية، وإمكان أقدس إنسان على ارتكاب أفظع الخطايا. وهذه الخطايا التي تقر بها، لست انت الأول في اقترافها، ولن تكون الاخير. ويا ما سمع الكاهن من أمثالها، لا بل أفظع منها، مع أناس أكثر منك قداسة : اذاً لنطرح الخجل عنا ولنعترف بكل خطايانا.

وكما أننا لا نستحي أن نكشف لطبيب الجسد أمراضنا مهما كانت مخجلة مع العلم أن طبيب الجسد قد يخبر الغير عنها – كذلك فلنكشف لطبيب النفس أمراضنا الروحية ليطببها، مع الثقة التامة أنها تبقى مستورة عن أي إنسان آخر.

س 8 – الاعتراف وسيلة سهلة لمغفرة الخطايا، وفي ذات الوقت يشجع على ارتكابها. عندما يعرف التائب انه مجرد ما يذهب الى الاعتراف ويقر بخطاياه، ينال المغفرة، فإنه يقدم على اقتراف أفظع الخطايا، لا بل يندفع اليها منغمساً فيها عن رضى وطمأنينة.

ج – يقول حضرته بأن الاعتراف يشجع على ارتكاب الخطايا! لا. ان الذي يعترف بنية أن يعود الى الخطيئة، فاعترافه باطل، و لا ينال الغفران. لأن للاعتراف شروطاً أهمها ثلاثة : الإقرار و الندامة والقصد.

فالإقرار قائم بان نقر امام الكاهن بخطايانا كما هي، نوعاً وعدداً. ولكن هذا لا يكفي وحده لنيل المغفرة. لأن الاعتراف ليس هو مجرد قصة أو خبرية نحكيها للكاهن. بل هناك شرطان آخران جوهريان وهما الندامة والقصد.

والندامة تقوم بان نبغض الخطية والخطايا التي صنعناها لأن هذه الخطايا هي قبل كل شيء إهانة لله الكلي الصلاح والقداسة والمحبة. نبغضها كأكبر عدو لنا، نبغضها لأنها تخسرنا النعيم وتقودنا الى الجحيم.

ومن يبغض الخطية من صميم قلبه لا يعود اليها بسهولة.

اذا اختلف انسان مع آخر فيقتضي له ألوف المعاملات حتى يصالحه، خصوصاً اذا كان قد لحقه منه بعض الخسائر.

فالإنسان بالخطية يخسر كل شيء، ويعد للهلاك، للنار! فإذا كان فيه ندامة حقيقية على خطاياه فليس من السهل أن يعود الى مصاحبة أعدائه.

القصد : ومع الندامة القصد – أي ان يعزم العزم الثابت، الراسخ، الأكيد أن لا يعود الى الخطية مرة أخرى، بل يفضل أن يحتمل مختلف أنواع العذابات ولا يعود اليها. لا بل يفضل أن يموت قبل أن يقبل بالعودة اليها. ان المسيح عندما غفر خطايا المخلع قال له : لا تعد الى الخطيئة، وكذا للزانية.

فمن اعترف بهذه الاستعدادات الصالحة أي مضيفاً الى الإقرار الكامل الندامة الحقيقية والقصد الصالح ليس من السهل ان يعود الى الخطية، وان عاد اليها يكون سقوطه فيها أقل بكثير مما سبق له ذلك.

أما اذا اعترف مكتفياً بالاقرار وحده ولا ندامة عنده ولا قصد، بل نية الرجوع الى ارتكاب المعاصي، وما عظم منها، فإن اعترافه باطل، ولم يتبرر بل زاد شراً على شر.

الاعتراف يقدس من يمارسه كما يجب كما يؤيد ذلك التاريخ والاختبار.

كم من نفوس شريرة، تابت توبة صادقة وعادت الى الحياة الفاضلة بواسطة اعتراف صالح؟ وكم من شرير صار قديساً لأنه اعترف اعترافاً صادقاً فتطهر من خطاياه ومشى بطريق القداسة.

وكم من نقيصة وخطية يتجنبها الانسان لانه اعترف بها وندم عليها وعمل جهده في استئصالها؟

هذا هو الاعتراف الحقيقي الصالح، غافر الخطايا.

سمعت مراراً من يقول : ليعترف الخاطي. اما انا – الحمد لله – لا خطية علي. عائش بخوف الله! كم مرة يسمع الخوري مثل هذا الجواب عندما يحرص شخصاً مضى عليه زمن طويل بدون اعتراف؟ انه يقول : ابونا ليش الاعتراف؟ انا لا اسرق ولا اقتل. عائش بخوف الله. شو بدك اكثر من هيك؟ - ما قولك يا حضرة الاب بمثل هؤلاء المسيحين؟

يقول : شو الاعتراف؟ انا لا اسرق ولا اقتل! – انت لم تخطأ ؟ اذاً انت لست بانسان. لان الكتاب المقدس يبين لنا ان البار أي القديس بخطأ سبع مرات بالنهار! والقديس يوحنا الرسول يقول في رسالته الأولى (1 : 8 – 10) : " إن قلنا ليس فينا خطية فإننا نضل انفسنا، وليس الحق فينا... وان قلنا إنا لم نخطأ نجعله (المسيح) كاذباً، ولا تكون كلمته فينا"

اذا بحسب الكتاب المقدس كل انسان خاطئ، ويرتكب الخطايا. فمن يقول انه بلا خطية، فاما انه ملاك واما كاذب!

لم اسرق ولم اقتل! – ايا ترى هذه كل الشريعة؟ هذه كل الوصايا؟ ماذا تصنع بالتجاديف، بالمسبات، باللعنات؟ ماذا تصنع بالحلفانات الكاذبة وغير الضرورية؟ ماذا تصنع بالأكاذيب التي كذبتها؟ ماذا تصنع بالشغل يوم الأحد والعيد؟ وبعدم سماع القداس في الأيام المعينة؟ ماذا تصنع بالصوم والقطاعة؟ ماذا تصنع بعذاب الوالدين وقلة احترامهم؟ ماذا تصنع بالعداوات مع الناس؟ والنميمة، والكلام بحق صيتهم وآدابهم؟ ماذا تصنع بالأفكار الشريرة، والرغبات القبيحة، والعادات المشينة، والشهوات الفاجرة؟ ماذا تفعل بالكبرياء والعجرفة؟... بمحبة الذات؟ بمحبة المال؟ ماذا تصنع بلعب القمار؟ وقراءة الكتب الشريرة ومشاهدة الصور الخلاعية؟ ماذا تصنع بالرقص الفرنجي؟ ماذا تصنع بعدم المناولة الفصحية؟ وعدم الاعترام السنوي؟

ان الغني الذي أخبر عنه الإنجيل انه دفن في الجحيم عندما مات ما يكن يسرق أو يقتل. ومع ذلك دفن بالجحيم!

فيوجد اذًا وصايا كثيرة يجب حفظها غير السرقة والقتل. ومن يا ترى يقول : ليس علي خطايا؟ أولئك الذين مضى عليهم سنوات بدون اعتراف، وبهم يصح كلام المسيح : لهم أعين ولا ينظرون!

ان الذي اعتاد أن يمشي بالوحل لا يرى وسخ قدميه وأثوابه. وأما من اعتاد النظافة فإنه يسرع حالاً الى تنظيف حاله لأدنى غبار يلحقه. هكذا هؤلاء الذين اعتادوا أن يحيوا بالخطية لا يعودون يرون خطاياهم لأنهم ألفوها! وليس لأنهم بلا خطية.

اختم كلامي بهذه القصة الطريفة، قصة حنا النجار : كان في بلدة رجل نجار اسمه حنا. وبقدر ما كان نجاراً ممتازاً بقدر ما كان مهملاً لاعترافاته. مضى عليه خمس عشرة سنة دون اعتراف. وكل مرة كان الخوري يحرضه على الاعتراف كان يجيب : أبونا ليس عندي خطايا لأعترف بها. أنا لا أسرق ولا أقتل. أخيراً طلبه الخوري ليساوي له شباكاً عالياً في الكنيسة. فاسرع حالاً وأتى بالسلم، وصعد ليصلح الشباك قرب الخورس.

ماذا صنع اذ ذاك؟ أمر الخادم أن يرفع السلم من مكانه، وان يدق أجراس الكنيسة كلها. ولما دقت الأجراس على غير عادتها أسرع سكان البلدة الى الكنيسة ليروا ماذا يوجد. فكان الكاهن يستقبلهم ويقول : أمر هام جداً. ولما أخذ كل مكانه، صعد الخوري الى المنبر وقال للسامعين : أيها الأخوة، أبشركم بفرح عظيم. صار عندنا قديس كبير من بلدتنا. لقد وصلتني الساعة برقية من قداسة الحبر الأعظم يعلن فيها قديساً كبيراً أحد أبناء بلدتنا المدعو : حنا النجار. وترونه هناك على افريز الشباك فوق الخورس!

لما سمع حنا النجار هذا الكلام أخذ يختبئ بالقرب من حائط الشباك حتى لا يراه أحد.

فأخذ الناس يحدقون به متعجبين! وقام واحد في وسط الكنيسة وقال : يا حضرة الآب، لقد علمتنا أن قداسة البابا معصوم من الغلط، ونراه الآن غلط غلط كبيراً، لأن هذا الذي أعلنه قديساً عظيماً، البارحة سكر سكرة لها أول وما لها آخر وأخذ يجدف ويشتم ويلعن... وقال آخر : حنا النجار قديس ! ؟ من أسبوع سرق لنا دجاجة وأكلها!... وقال ثالث : هذا قديس؟ هذا ابليس! منذ سنة دفعت له عشر ليرات ليعمل لي منجوراً للبيت، فأكل المال ولم يصنع شيئاً. وقال رابع : أما قديس! كل يوم خناقه مع زوجته وأولاده. وبيته أشبه بالجحيم! وقال خامس : لا يوجد واحد في البلد الا وأكل عليه بعض فلوسه. انه كذاب، منافق، لص، أزعر، بلا ضمير، وبلا دين ... ولم يبق واحد في الكنيسة إلا قام وذكر لهذا القديس الكبير (الذي كان يجب الكاهن : أنا لا أعترف لأنه لا خطايا لي) ما يعرف له من الخطايا.

فلما انتهوا جميعاً، نظر الكاهن الى حنا النجار وقال : انزل الآن فقد اعترف الشعب عنك علناً بكل خطاياك. أما كان الأفضل أن تعترف بها أنت وتبقى مستوراً؟

أخوتي الأحباء،

لا تقتدي بحنا النجار فندعي أننا بلا خطية، بل فلنقرع صدورنا ندماً على خطايانا مرددين مع القديسين :

خطيئتي عظيمة، خطيئتي عظيمة!

ولنتقدم معترفين بها لسيدنا يسوع المسيح، بشخص نائبه الكاهن، لأن يسوع رسم سر الاعتراف من عظيم محبته للخطأة. فهو يريد أن يعانقهم ويملأ قلوبهم تعزية وسلاماً فيقول لهم – بواسطة نائبه الكاهن - :

((يا بني، مغفورة لك خطاياك، اذهب بسلام!))

آمين